الابن

الكاتب الفرنسي بول بورجيه

إستيقظت مدام « ليجيه » في صبيحة هذا اليوم قلقة بادية الهموم والتفكير . فقد كان عليها أن تضع حدا لحياتها كأرملة في مقتبل العمر ، ولحياتها كأم ذات بنين ثلاثة . فلقد مضى على وفاة زوجها وهي إذ ذاك في الثالثة والثلاثين عامان كاملان . وكانت وفاته بعلة ذات الجنب التي خالسه وشيكا من دائرة عمله كمحام له شهرة مستفيضة ومحل من قلوب الناس . ومنذ ستة أسابيع سلفت قبل هـــذا الصباح الذي تستفيق فيه مدام « ليجيه » حائرة مفكرة ، اجترأ « جورج فوكوات » صديق بعلها المرحوم ومحام مثله أمضى معه سني الجامعة ثم لزم زوجها في دائرته لزوم الشريك وفي بيته لزوم الصاحب ، اجترأ هذا الزميل على أن يقول للأرملة الصبية منذ ستة أسابيع :

— إني لأحمل لك أيتها السيدة منذ طويل عاطفة لم أستطع استكناهها ولا فهم طبيعتها إلا منذ اليوم الذي غادرنا فيه صديق العزيز زوجك ، فأصبحت بوفاته حرة التصرف مالكة لزمام أمرك . وأظنك كنت تستشعرين مني هذا الصمت الناطق وتحسين احترامي الراحل الفقيد وتقدرين رعايتي لك . فبسببك يا سيدتي « ومعذرة من اعتراق بهذه الحقيقة » قطعت كل صلة تربطني بامرأة أخرى في هذه الحياة ، وأنت كامرأة في ريق شبابها وا كمال أنوثتها ، لك الحق بل يجب عليك أن تستأنفي حياة الزوجية السعيدة من جديد . وإذن فهل أستطيع أن آمل يا سيدتي أن تعتبريني الزوج المخلص الذي سيكون من أشهى أحلامه أن يضحي راحته وحياته لأجلك ... إني أحبك ... يا سيدتي ، ولعلها المرة الأولى التي أسمح فيها لنفسي بنطق هذه الكلمة الجريئة على مسمع منك ... أما أنت يا سيدتي فليس عندك إلا كلمة واحدة تقوليها لي في هـذه اللحظة ستكون هي

الثاني :— هو نص المادة ٢٦ من قانون المواريث رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣ وهي تنص على ما يأتي :— يحجب أولاد الأم كل من الأب والجد الصحيح وإن علا ، والولد وولد الابن وإن نزل »

والمقصود بالولد هنا الابن أو البنت على السواء

محمد كامل عزب

يصمد بمعنى يثبت صحيح

جاء في العدد الأخير من مجلة الرسالة الغراء تعقيب يذكر فيه كاتبه على الأستاذ الكبير سيد قطب استعماله يصمد بمعنى يثبت ، مستدلا على ذلك بما جاء في القاموس من أن الصمد بمعنى القصد والصمد بمعنى السيد وليس من معنى المادة الثبوت

ولو أن الكاتب الفاضل تدبر قليلا في هذه المادة لوجدها تدل أصالة على معنى الثبوت ثم تدل بعد ذلك على معنى القصد والسيد وغيرها نماء يدل على ذلك ما جاء في القاموس نفسه من أن من معاني الصمد الدوام : والصماد الجلاد والصمدة الصخرة الراسية ، والصمد الشيء الصلب ما فيه خور ، وناقة مصماد باقية على القر والجدب دائمة الرسل . ولا يخفى ما في هذا كله من معنى الثبوت والدوام ثم تفرع عن هذا المعنى الأصلي في المادة الصمد بمعنى القصد للثبوت عليه والصمد بمعنى السيد لكونه لا يحول عن المكارم

ولعل ما ذكرته هو الذي يتسق مع المنهج الحديث في دراسات علم اللغة العام . وأما تفسير الكشاف للفظة الصمد من قوله تعالى « الله الصمد » بالمقصود فليس بمستقيم ، والأحق أن يكون معناها الدائم الباقي لأن السورة قد جاءت لتثبت لله صفتي الوحدانية والبقاء ، ولا يخفى اتساق هذا المعنى الأخير مع قوله تعالى « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » والله أعلم

وللكاتب تحيات المخلص

عبد البصير عبد الله حسين

الأولى والأخيرة . ولكن بحقك لا تلفظها إلا بعد تأمل فى عاقبتها ، فإن ما أجن لك من هوى دفين لأمر من الأهمية والخطورة بحيث لا تكفيه كلمة أو جواب يقال على استعجال واقتضاب . قالت مدام « ليجيه » وصوتها راجف وطرفها خاشع :

— أتطلب منى استئنافاً لحياتى الزوجية معك ؟ ثم جمد لسانها عند هذه الكلمة فلم تأت « بلا » أو « بنعم » ؛ وأخيراً جسرت فقالت :

ولكن حياتى لا يمكن ترميمها ولا استئنافها . إنك تتكلم عن الحق والواجب وأنا لا أعرف إلا حقاً واحداً : هو السهر على أولادى ، ولا أفهم إلا واجباً فـــرداً : هو واجبى نحو أبنائى الثلاثة .. قال الصديق الخاطب :

— أو لا تشعرين أنى أحبهم هم أيضاً وأعزهم وأحنو عليهم كأبيهم صديق الراحل ... ؟ ! ومن لعمرى سيحل محل الأب الراحل إن لم يحله صديق أبيهم وصفيه ؟ وهل غيرى يعرف ميول صديقه وذوقه ومشربه فى التربية والسلك ؟ وإذن فهل تسمحين يا سيدتى أن أشغل مكان الأب الراحل ؟ أترضين أن تكونى امرأتى أمام الله والناس

قالت الأرملة فى حسرة وتلدد :

خلى الآن لشأنى ... هلا جنبتنى الكلام فى هـذا الموضوع . ؟ ! إنه ليؤلمنى البحث فيه ويسبب لى كثيراً من الشجن والشجو

لا أعرف شيئاً . لا أفهم شيئاً . لست بمستطيعة أن ألمح فى قرارة نفسى المظلمة عاطفـة أستطيع منها إجابتك على سؤالك لأنى أجهل نفسى ... ولكنى أعدك أن جوابى سيكون بعد قليل من الزمن ... أما الآن فلا أستطيع ، أجل لا أستطيع .. فأجاب جورج فوكولت :

— سأنتظر كلمتك كما تشائين وأنى تشائين . إنك إلا تقولى « لا » هذه اللحظة فبحسبى ، لأن ذلك معناه أنك قد تتبصرين خلال سجوف المستقبل الكلمة الحبيبة إلى قلبى وهى « نعم » . إن التردد والتحير مؤلمان للقلب مزهقان للروح إذا لم يكن القلب المنتظر فى شرخ شبابه . قال ذلك وأبان لها عن طرف لثته وقد طرزتها سنوه الأربعون بأسلاك الشيب البيضاء . فأحست الرأة الأرملة وهى تتأمل وخطات الشيب فى رأسه ، وتنظر إلى أثر التأنيب الصامت من عينيه السوداوين : أن موسيو جورج إنما يقيس سعادته فى هـذه الدنيا بمقياس ما بقى له من سنين فيها ، وكأن نظرته كانت تقول لها ، إن ما يطويه الشباب اللاهى من متع ومباهج لا ينشرها كفن المشيب مهما يمتـد ويضف ثوبه . ثم يستأنف حديثه ويقول :

— إنه إحسان منك على أى حال أن تحددى لقلبى الشهيد موعداً للجواب كى أغادرك وأنا أقول لنفسى من يوم لآخر ستوافينى نعمة جوابها فى يوم كذا .. « كارين » ، أيتهـــا العزيزة ، إختارى بنفسك اليوم الموعود وعينى تاريخه ، وليكن القرب والبعد على ما يوافق رغبتك وهواك ... أما أنا فسأعاهدك الآن عهداً لا أحنث فيه ولا أنحرف ألا أخوض فى ذكر هـذا الموضوع الذى سيكون برغم هـــذا هو شغلى الشاغل وهمى الناصب .. فحددى بعيشك موعد جوابك . وهنا تمتمت مدام « ليجيه » بصوت محتبس ولهجة ضارعة : سيكون ذلك حين ينتهى أجل حدادى على زوجى الراحل . وبما أنك تدعى حبى فارجوك التمسك بوعدك منذ الآن كما أتمسك بوعدى أنا . والآن أرجو ألا تلح على فى هذا الشأن فقد كفانى ما كفانى ...

ثم يقول لها . وهو يود أن يوضح بالوقت المعين كل شك وغموض يمكن أن يعتور موعده المرجى : وإذن فسيكون جوابك بعد أسابيع فى الرابع عشر من نيسان ؟ ! فأجابت على هذا بإيماءة من رأسها ثم انعقد بينهما جو من الصمت ...

لقد قالت يد الموت زوجها الحبيب فى الرابع عشر من أبريل أى منذ اثنين وعشرين شهراً سلفت قبل هذا اليوم الذى يجالس فيه مدام « ليجيه » خطيبها السيو جورج . كل ذلك جال بذهن (مدام ليجيه) وظن الخاطب الصديق الذى شعر بثقل كلماته على نفس الزوجة بعد أن عين لها الموعد المضروب ... أن يستأنف المرء حياته دون أن يعوج بذكرى أحبته الراحلين عن الدنيا فى ذلك ويا للحسرة إساءة إلى ذكراهم الثائرة وعهودهم الماضية ، وإذن فمن يئب عن الوجود تحت معه ذكراه وتندثر ثم تبتلعه هوة العدم إلى غير رجعة ، والمفقاء

ومرت على هذا اليوم ستة الأسابيع المضروبة دون أن يلم خلالها طيف الزوج الراحل ودون أن تتردد ذكراه على رأس الخاطب ومدام « ليجيه » فتفسد عليهما خلوتهما اللذيذة وجلساتهما اليومية التعاقبة ...

ويجد المسيو جورج من اللطف والأدب ألا يعرض لذكر الموعد المرتقب خلال هذه الأسابيع الستة . ثم يرى من الظرف والكياسة أن يغادر (باريس) حين اقترب اليوم المضروب يوم ١٦ نيسان . أما مدام « ليجيه » فقد أخذت تتهيأ لهذا اليوم وهو ذكرى يوم وفاة زوجها . وقد أحيت هذه الذكرى في ذلك اليوم في شيء من البرود وعدم المبالاة لم تخرج بهما أثارة من حنان ولا بقية من لجيمة وحسرة . وفي اليوم الثالث عشر من نيسان تسلمت من جورج خاطبها خطاباً ينبئها فيه بزيارته من الغد عند الظهر ، فأقبلت على الرسالة تقرأها مرة ومرتين ثم بدرت منها بادرة غريبة عجبت لها هي نفسها ... وذلك حين رفعت رسالته إلى فمها وقبلت سطورها وفي ظنها أنها إنما تقبل حياة تفيض بالسعادة واللذة خلال هذه السطور .. وأخذت تردد : نعم .. نعم .. سيكون جوابي .. نعم . وإذن ففيم استيقاظها صبيحة هذا اليوم مضطربة حيرى كما أسلفنا ؟ .. ما الذي حدث خلال هذه الفترة القصيرة بين تقبيلها رسالة جورج نهار الأمس فرحة نشوى وبين الساعة التي ترتفق فيها وسادة سريرها الوثير يبدو عليها سهوم وتفكير ؟ ما الذي طرأ عليها يا ترى فبدل عزمها ؟!.. وأقبلت الخادم في هذه اللحظة فهصرت أستار الشرفة عن النوافذ والشبابيك فطفت على جوها موجة من نور لألاء ضاحك فعمر المكان كله ؛ وكان المكان في شارع « فانو » تشرف نوافذه وشرفاته على بستان القنصلية النمسوية الظليل ، ولمعت زرقة السماء من خلال النوافذ ونفذ تغريد العصافير إلى المسامع شجيا موسيقيا شعرت معه مدام « ليجيه » أن ثوب الجدة الذي تضفيه الطبيعة على جسمها يتفق والموقف الجديد الذي تقفه هي من حياتها الجديدة هذا اليوم .. حتى أن الثوب المزركش الذي حلته الخادم منذ لحظة كان يغريها بأخيلة وخطرات حافلة باللذة والسعادة..

ومع ذلك فلم ينقطب جبينها ويربد وجهها كلما نظرت إلى عقرب الساعة ينتقل من مكانه . مالها تقف حالة ساهمة بدل أن تنشط وتفرح ؟ .. أتراها تتخوف مما عساه يحمله لها هذا اليوم من خوف مجهول ؟

* * *

حين تكلمت مدام ليجيه عن واجباتها نحو أولادها لم تقل كل شيء للصديق الخاطب ، لم تعترف له أن ولدها البكر « شارل » ما فتئ منذ شهور مدعاة تخوفها . أبداً لم يتبادل الابن مع أمه كلمة عن « جورج فوكوات » خاطبها الرغيب ، وكان هذا الأخير لا يميز هذا الفلام اليافع في المخاطبة والحوار من أخيه الصغير « رنيه » وأخته الصغيرة « هيلين » اللذين كان يكلمهما بصيغة الإفراد دون كلفة . ولكن إذا شفعت سنو الطفل « رنيه » الخمس وأعوام الطفلة « هيلين » العشرة — لهذه الصيغة الافرادية يبدي فيها صديق أبيهما حبه وتدلهه لهما ، فان الستة عشر عاما التي يجتازها الفلام المراهق « شارل » كانت تقيم بينه وبين « جورج » الخاطب جوا مختلفاً عن جو أخويه فيه بدل الألفة والعطف وعدم الكلفة الانقباض والنفرة . ومع هذا فقد كان الخاطب الواغل يغضي عن هذا ويتجاهل ، بل لقد أخذ في الآونة الأخيرة يضاعف عطفه على الفلام ويبتغي الوسيلة إلى قلبه النافر ووجهه العابس الصامت

ونلاحظ مدام « ليجيه » ذلك السلوك المحبب الجذاب الذي يعامل به الخاطب ولدها البكر فتغتبط به وتنشرح له

ولكن رغم كل هذا كانت تتوقب من ابنها رفضاً وثورة أخذت تحسب حسابهما وتتهيأ لهما منذ أيام

من هنا كانت حيرتها وقلقها في هذه الصبيحة الباسمة من نيسان التي كان عليها فيها أن تقول كلمتها الأخيرة في رفض يد « جورج » أو قبولها . ولهذا وحده هي تدير في ذهنها الصورة المستحبة اللائمة التي يمكنها بها أن تفجأ ولدها دون أن تؤذيه أو تسوءه في عزة نفسه ، فكانت تردد :

— كان علي أن أنبئه بذلك وأسبر غور رضاه أو رفضه منذ

سنة أسابيع ... غير أنى لم أستطع ذلك لأني أجدني أمامه مرتبكة مشلولة الإرادة فأنى بحضرة أبيه الراحل . فيا لله كم يشبهه حتى كأنه صورته الثانية ! وعلى كل حال فإن جورج أحسن فى تحببه إليه وترضيه ... وذكر اسم جورج هكذا مراراً ، دل المرأة على أنها تنطوى له على حب دميل ..

نعم يلوح لها أنها تحبه بأنصاف من المواطف والميول غير متكاملة ولا متكونة . ولكن ذلك ويا للأسف كان يزيد ألمها ويضاعف شجوها .. أجل إن جورج محق فى قوله . فواجب على معاودة حياتى الزوجية ، وأنا بهذا لا أنال شيئا من روجى الميت ولا أسوءه فى كرامته . كذلك لا أفقات على أولادى الأحبة الذين تركنى لهم ، لأن جورج سيحبهم وسيحنو عليهم . والصغيران يحسان بهذا وبقدرانه فى سذاجة وطهارة . أما شارل ولدى الحبيب فسوف يقدره كذلك إن تفكر وتدبر . آه لشد ما يحب أباه هذا الصغير ! إنه لينمو ويتفتح للحياة يوما بعد يوم كأنما تتعهد عاهه معجزة من السماء

هو الأول فى فصله فى مدرسة « سان لويس » وإنه يتفوق بين رفقائه وزملائه بصورة غريبة سريعة كأنما وطن نفسه على أن يسد الفراغ الذى تركه أبوه من بعده ، إن لم يكن قد قام فى نفسه أكثر من هذا : أن يكون خليفة أبيه فى البيت ورب الأسرة التى كان يحلم أن يكون حاميها وراعيها . فيا للقسوة والنكران ! وكيف تجرؤ هذه الأم أن تسلم أمور البيت إلى راع آخر وحام غريب ؟!

ومضى الوقت وكادت الساعة تبلغ العاشرة وأفكار المرأة مازالت تضطرب فى ساحة ذهنها جيئة وذهوبا . وفيما هى منصرفة إلى زينتها وترجيل شعرها وتعليق حليها وأقراطها ، إذا طرقات على باب الشرفة تنفذ إلى أذنيها فيجب لها قلبها وترتعش نفسها أمامه كمجرم أمام قاضيه . وفى الحق لقد كان الداخل « شارل » الذى توقف على الباب لحظة كالمأخوذ بدل أن يدخل عليها لتوه . قالت له الأم مضطربة قلقة وقد شاهدت تأثرا فجائيا يطبع وجهه بطابع الألم : مالك يابنى ؟ فأجابها الغلام :

لا شئ لا شئ ، إنى مشدوه معجب فقط ... لقد ألفت أن أراك دائما فى ثياب الحداد . ولكن ولكن ... أصحيح أن حدادنا على أبى قد انتهى ؟ فألقت « مدام ليجيه » على المرآة الكبيرة أمامها نظرة غير عامدة فإذا بها تبصر ملامح وجهها الرائق تنسجم أبدع انسجام مع خصلات شعرها الذهبى ، ولكن يناقض ذلك كل المناقضة زى ولدها المدرسى الأسود الفارق كله فى حلة من حداد ، ويرتجف صوت الأم حين تهم باجابة ولدها ثم تنجدها لباقتها فتغير مجرى الحديث وتقول :

— ولكن ... قل لى ... لعلك مسرور من أستاذك هذا الصباح ؟ ثم ... ثم كيف حال كتابتك فى الانشاء ، أظنها أعجبته ؟! ثم ناجت نفسها :

— سألبث لحظة قبل الاعتراف له بالحقيقة خصوصا وهو متأثر ومفاجأ بهذا اللباس والوقت متسع للغداء وللافضاء إليه بالأمر ...

° ° °

على رغم من أن الخادم المتوفى موسيو « ليجيه » قد خلف لعائلته بفضل مركزه الخطير ونجاحه الكثير ثروة لا بأس بها ، فان مدام « ليجيه » لم تخالف شيئا مما ألفته سابقا من تدبير واقتصاد فى الانفاق على المنزل . ولما كانت مدام ليجيه لاتستقبل فى مفتتح عهدها بالترمل إلا أقرباء يمتون إلى الزوج بصلات القربى والمودة ، فان الإعداد لذكرى الميت لم يكن يحملهم جهدا أو مشقة . ولكن أنى لها بمل كرسى زوجها بشخص خاطبها جورج فى حفلة الغد ؟ أى عذر ستعتذر به لولدها ؟ كيف تخل بهذه العادة التى يقدسها ابنها ويمجدها ، والتى باتت تهيمن روحها وتثقل على قلبها لأن صورة الخاطب أخذت تحتل مكانها يوما بعد يوم من قلبها

وفى صباح هذا اليوم فى ونية طافرة من ونبات الإرادة الغريزية أمرت مدام ليجيه الخادم فقالت :

— لويس ، لا تضعى فى هذا الغداء مقعد المرحوم زوجى على المائدة ، بل عليك أن تضعى مكانه مقعدا لجورج فوكوات ...

وحان وقت الغداء واتخذت العائلة أمكنتها حول المائدة ، ولكن « شارل » الصغير ما كاد يرى المائدة والكرسي الجديد يدل كرسي أبيه المتوفى حتى حلق في وجه أمه وقد امتقع وجهه وانتسف لونه أولا ثم احمر واشتعل بالدم الملتهب . ونظرت إليه الأم برعب ورهبة ، ثم صبغ وجهها الاحمرار هي أيضا . ولكن في تلك اللحظة الرهيبة الحرجة جرى أمر زاد في اضطراب مدام ليجيه وارتباكها ثم حيرها ، ولكنه في الوقت نفسه أجرى المسألة في مجرى حسن لم تكن تتوقعه مدام « ليجيه » . فبينما كانت تتناول بيدها مسند مقعد كي تجلس إلى المائدة إذا « بشارل » ولدها يلقي عليها نظرة تفيض بالحنان والشكر ثم تحتفل عيناه بالدمع الذي لم يكن منبعه الحنق عليها ولا الغضب منها وإنما هو الامتنان منها والشكر لها ... ولكن من أي شيء صدر هذا الامتنان ؟! تجم مما صوره له وهمه دون أن يتظنن بالحقيقة الواقعة فلم يلاحظ الولد الطيب صورة المفاجأة والدهشة التي بدت على وجه أمه ، ولا نظرات الارتباك المتبادلة بينها وبين الخادم ، فقر في ذهنه أن أمه قد تبرعت له بمكان أبيه مراعاة له وتبديدا لاظنونه السابقة في وفائها لأبيه ، لهذا احتل مقعد أبيه أو الكرسي الذي وضع للخاطب « جورج فوكولت » محل كرسي أبيه ، وقلبه يخفق من الفرح والشكر وحلقه غاص من الذكرى والحنين ... وانتهى الغداء وخلا المكان « بشارل » وبأمه فضم « شارل » أمه إلى صدره بشوق وشكران وراح يقول لها وقد أرخى لعبرانه العنان حتى بللت وجه الأم المسكينة الحائرة .

— آه ، شكرا لك ألف مرة يا أماه . فقالت أمه في حيرة :

— ولكن لم هذا الشكر يا بني ؟! فقاطعها دون أن يترك لها الفرصة لمتابعة حديثها :

— أشكرك لأنك أحللتني محل أبي على مائدة الطعام في اليوم الذي تخلعين عنك فيه ثوب الحداد . إنك لا تدرين أي جميل أسديته إلى وملأ به قلبي الحزين ... آه ... ولكن يجب أن أعترف لك بصراحة . لقد كنت منذ زمن أشك ، بل أخاف من نصرفاتك فاغفري لي الآن هذه الشكوك والظنون ... ثم كنت أخشى أن تسنح لك في يوم ما فكرة الزواج لأنك ما زلت صبية . ولقد أبصرت ثلاث أمهات من أمهات رفقائي في المدرسة يتزوجن ويسلمن أبناءهن لأب ثان غريب عنهم . ولكنك أجلستني بجانبك منذ لحظة على مقعد أبي المرحوم فأدركت أنك تريدين أن تقولي لي : املأ محل أبيك يا بني فقد آن لك أن تشغله وتواجه أمتك وأخاك العزيزين وأمك التي تحبك ، ولكن إن شغل مكان أبي ذلك الأب الذكي الطيب ، فذلك ما ليس في وسعي ولكن أعاهدك أن أبذل له جهدي . وهنا تمثل لمدام « ليجيه » أنها كانت ستحطم قلب ابنها النبيل لو أنها انقادت لهواها الذي بدأت تشعر به نحو « شارل »

وفي هذه اللحظة وبينما « مدام ليجيه » تضطرب بين الماضي والحاضر ، وتترجح بين تيارين طاغيين . تيار جارف عنيف من حب امرأة صبية حسناء ، وآخر هادئ عميق من عطف أم رؤوم ، إذا برنين الجرس ينتزعها من ذراعي ابنها الذي كانت تحتضنه وتضمه إلى صدرها بحرارة وشوق ..

لم تكن مخدوعة فقد جاءها الخادم بعد ثوان يطلب الإذن لموسيو جورج الخاطب الجديد ، فأبدى ابنها « شارل » حركة مفاجئة أراد معها الانسحاب من قاعة الاستقبال ولكن الأم فهمت منه هذه الحركة فقالت في كبرياء ممزوجة بألم :

إبق مكانك يا « شارل » ثم التفتت إلى الخادم وقالت :

— قل لموسيو « جورج فوكولت » إنه من المستحيل على مواجهته هذه الساعة وسأكتب له جوابي كتابة ...

« حين انفردت بابنها راحت تعانقه في لهفة وابتهاج ثم قالت :

أبدا لن أتزوج يا شارل العزيز . أبدا لن أثقل عليك بأب يؤلم نفسك ويجرح قلبك . لن أرضى أن تنالم أنت كي أسعد أنا . إنك حسبي من دنياي يا بني وأظن أني حسبك أيضا

ك . ع